

البَابُ الْأَوَّلُ

obeykandl.com

الفصل الأول

الاجتهاد مظهر من مظاهر الإنسانية في الرسول :

هناك عدة مظاهر تم عن إنسانية من يختاره الله لرسالته ، وتدل على أن اصطفاؤه لأداء هذه المهمة القدسية لا يخرجها عن طبيعة الإنسان ، يجوز عليه ما يجوز على أي إنسان آخر فيما عدا ما كلفه الله بتبليغه للناس .

فهو يأكل قبل الرسالة وبعدها كما يأكل الإنسان ، وينسل قبل الرسالة وبعدها كما ينسل الإنسان^(١) ، ويدفع عن نفسه ضرر الجوع واعتداء المعتدى بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التي اعتاد أن يسلكها الإنسان في دفع الضرر ودفع الاعتداء عنه . يحترف ويتجر على نحو ما يحترف الإنسان ؛ يتجر لتأمين عيشه وعيش من يعوله . يقاوم المعتدى ويهاجمه إن ظن الغلبة عليه ، ويمهله إلى حين حتى يستطيع رده بشخصه أو عن طريق جمعٍ من أعوانه .

يناضل في الحياة ويكافح من أجل هدفه فيها ، ويتخير لنضاله وكفاحه ما يتخيره العاقل المتروى من الإنسان . يسلك لإقناع الغير سبيل الإقناع حسبما ينبجلى له من نفسه ودخيلة أمره ، ويسلك لمحاربة المعاند من خصومه وأعدائه طريق الحرب حسبما تتطلب الظروف والمواطن .

[١] في رواية البخاري : « لاني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء . . . »

ولم يشأ الله أن يخرج عن طبيعة الإنسان وخصائصه لأنه أراد ، حسب ما في علمه ، أن يكون رسوله المصطفى لتبليغ رسالته في جيل أو في أمة أو للناس كافة . والله تعالى قادر على أن يخرج عن هذه الطبيعة ويمنحه من الوسائل في الحياة والكفاح فيها ما ليست للإنسان . لكنه شاء جل جلاله أن يبقى رسوله للناس من الناس ؛ لا يتحول بالرسالة من إنسان إلى ملك فضلا عن أن يصل بها إلى مرتبة فوق مرتبة الرسالة والملك ..

وهذا قول الله جل جلاله حكاية عن نوح عليه السلام في رده على قومه لما قالوا له : « مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا » : « لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ »^(١) . وقوله تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ... »^(٢) .

وقد تعنتت كفار قريش مع نبينا صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه ما يدل على أنهم معاندون ، وقالوا : « أَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّيْلِ كَافِرًا يَلْبَسُ اللَّيْلَ ، أَوْ تَكُونُ لَكَ أَيْدٍ مِثْلُ بَيْتِ مَرْيَمَ ، أَوْ تُرْفِقُ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

لِرُقِيَّتِكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ، قُل : سُبْحَانَ رَبِّي أَلَمْ كُنْتُ
إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكَ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا . قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا « (١) .

وهكذا عاش الأنبياء والرسل أناسي وماتوا أناسي . كلهم احترق في سبيل
عيشه ، وكلهم ناضل من أجل عقيدته ، وكلهم اجتهد في تخير وسيلة العيش
وطريق النضال ، وكلهم أخطأ وأصاب في اجتهاده فيما تخير من وسائل وطرق
لعيشه وكفاحه (٢) .

وفي موتهم جاز عليهم ما جاز على الإنسان . نعم في غمرات الموت كانوا
يتشوفون إلى اقيما الله تعالى أكثر من حنينهم للدنيا وما فيها . ذلك لأنهم
ركزوا إيمانهم فيما وراء الدنيا بحكم اختيارهم للرسالة ، وإيمانهم إيماناً كاملاً
بها . وهكذا الإنسان لا يأسف على ما فات ان قوى أمله فيما هو آت .

وربما في عيشتهم وكفاحهم كانوا أحوج إلى الاجتهاد وإعمال العقل

[١] الآيات من ٩٠ - ٩٥ سورة الاسراء .

[٢] في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وما
أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجددي ، وخطيئتي وعمدي ، وكل ذلك عندي » .

أكثر من غيرهم . لأن الأنبياء - وكذا المصلحين في الجماعة - أشد الناس حاجة إلى قوة العقل ورجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق المران العقلي . لأن ما يصادفهم من مشاكل الحياة ويعترض طريقهم من صعاب يتطلب سرعة البت في حل تلك المشاكل وإزالة هذه الصعاب والعقبات . ولا يكفي في سرعة البت هذه حسن استعداد المرء وصفاء عقله وسلامة فطرته . فكم في النيافي ورءوس الجبال وبطون الأودية من خصوبة عقل وجودة طبع قضى عليها الكسل العقلي أو قلة الدربة في معالجة الأمور .

ولأن الدربة العقلية أزم للرسول - وكذا للمصلح - أكثر من غيره لا نجد بين من اختارهم الله لرسالته إلا من صهرهم الزمن وعسكرتهم الحوادث فجمعوا مع صفاء الطبع وعلو الأصل وغزارة العقل قوة الجلد ووفرة النصب والصبر على نوائب الدهر ومقارعة الخطوب .

وكلامهم من أجل عيشهم احترقوا لأنهم لم يكونوا من أصحاب اليسار . وربما تشابهوا جميعاً في مزاوله حرفة بالذات : فكثير منهم نشأ يتيماً أو شبه يتيم ، وكثير منهم قد رعى الغنم ، وبعضهم عمل عند غير أهله أجيلاً يأكل من أجره .

وقد تجشم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم طويل الأسفار للتجارة في

مال غيره بأجر ، وذاق مرارة اليتيم ، وحرّم حنو الوالد ، فألبسه كل أولئك من دروع العظمة أقواها ، ومن فضائل الرجولة أعلاها ، وصمت به نفسه عن مواطن الترهل والنعومة ، فتساقبت إليه أسباب الفضائل وتجمعت لديه عناصر الزعامة وأخصبت عبقريته وتفتحت لإلهام السماء مشاعره ، الله أعلم حيث يجعل رسالته .

من الميسور للرجل أن يستغنى عن الاجتهاد ، وأن ينزوى في ناحية من نواحي الحياة غير متعرض لتياراتها المختلفة : فمن الميسور أن يتوارى الرجل في جوف صومعة منقطعاً للتبتل والعبادة حتى يلقى الله ، ومن الميسور أن ينقطع للدنيا ويوليها جميع عنايته ، ويعطيها كل نفسه لا يسعى إلا لها ولا يفكر إلا في جمعها معرضاً عن الآخرة لا يشعر بها ولا يعرف من أبنائها أحداً .

كما أنه من الميسور أيضاً أن يعيش الرجل في هذه الحياة لا يهدف إلى غاية ولا يسعى إلى غرض طافياً فوق تياراتها تقذف به مع الريح حيث دارت وكيفما اتجهت ، فتارة تراه عابداً مع العباد ، وتارة فاسقاً مع الفساق ، وتارة عطوفاً خيراً ، وأخرى جباراً عتياً . وتارة ينهمك في جمع المال ، وأخرى يفرق في السرف والتبذير . فكل فعل من أفعاله يصدر عنه بلا تفكير ولا روية . فمثل هذا إن لم يكن مجنوناً فهو أشبه بالمجانين .

كل هذا ميسور . أما أن يخوض الرجل غمار هذه الحياة ويأخذ من كل ناحية من نواحيها بطرف ، فيعطى ربه حقه ، ونفسه حقها ، وبنى جنسه حقوقهم ، يعاشر الناس ويخالطهم ويعاملهم ، يجامل ويواسى ، ويقاطع ويخاصم ، ويهادن ويحارب ، كل في حدود المصلحة العامة والعدل والعقل ، وهو في كل ذلك سَلِمَ له دينه وعرضه ، فهذا ما لا يقدر عليه إلا القليل النادر ولا يستطيعه إلا أحد رجلين :

١ — رجل ألقى بنفسه بين يدي ملك الوحي ، يحركه كيف شاء ، وأنى

شاء . يرسم له الطريق ويخطو به كل خطوة ، ويسلك به دقيق المسالك وشعاب السبل . ومثل هذا لا يحتاج في حياته إلى عبقرية ولا فكر ، بل ولا إلى عقل . وهذا ما تنزه عنه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

٢ — أو رجل أعطى من قوة الذهن وشدة الفطنة وبقظة القلب وعبقرية

الفهم ما سهل عليه أن يجتهد ويضع كل شيء في محله وأن يستعمل كل شيء عند ظهور دواعيه . وهذا مقام الأنبياء والمرسلين والمصلحين .

فمن اصطفاهم الله خاضوا الحياة في جميع نواحيها وعالجوا كل

صعابها وفكروا وقدروا . وان وقعت من بعضهم في طريق ذلك هنات فتلك من مقتضيات طبيعة البشر ، للفرق بين الرب والمربوب والإله والمألوه . إذ العصمة لا تكون إلا لله وحده .

ونحن نعلم لهذا أنه لا يكفي ليكون الرجل قائداً مصلحاً في كل ضرب من ضروب الحياة أن يكون حسن السيرة تقياً ورعاً فحسب ، بل لابد أن يكون قوى الفكر سريع البديهة ، قوى الحججة صارم العزيمة شديد الشكيمة في تنفيذ الحق ، فطنا يقظاً حذراً لا يخدع .

فكثير من الصحابة عرفوا بالصلاح والتقوى ولم تعرف عنهم قوة الجلال والحجاج والحذر : منهم أبو موسى الأشعري رضى الله عنه . فقد كان ورعاً تقياً صالحاً خاشعاً ، ومع ذلك مكره به عمرو بن العاص وخدعه في التحكيم حتى ظفر به وغلبه .

ومنه أبو هريرة رضى الله عنه . قد كان عابداً حافظاً ولكن لم يبرز اسمه في عداد شجعان الصحابة ولا ذوى الرأى النافذ فيهم . روى البخارى عن الأعرج قال : قال أبو هريرة : « انى كنت امرأ مسكيناً أصعب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى » . وفى رواية قال : « قدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ قد زدت على ثلاثين فأقت معه حتى مات ، أدور معه فى بيوت نسائه وأخدمه وأغزوه معه وأحجج » . وقال محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : « لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجرة عائشة فيقال مجنون ومابى جنون ، ومابى إلا

الجوع». وأخرج البغوى عن الأعمش قال : «ما كان أبوهريرة أفضل الأصحاب ولكنه كان أحفظهم» .

ومنهم عبد الله بن عمر . وهو المعروف بالصلاح والورع وكثرة العبادة حتى أنهكته ، ومع ذلك لما طعن والداه رضى الله عنه وذكره فيمن يؤخذ رأيهم فيمن يكون خليفة بعده ، قال لهم : خذوا رأيي ولا يكون هو الخليفة .

ومنهم حسان بن ثابت . فقد روى ابن كثير في تاريخه : قال عباد بن عبد الله بن الزبير : كانت صفية بنت عبدالمطلب يوم الخندق في حصن قالت : وكان حسان بن ثابت معنافية مع النساء والصبيان فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ورسول الله والمسلمون في نحور العدو لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا ، فقلت : يا حسان ! إن هذا اليهودى كما تراه يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءه من اليهود ، فانزل إليه واقتله ! قال : يغفر الله لك يا بنت عبدالمطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت : فلما قال ذلك أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه فضربتة بالعمود حتى قتلتها ، ثم رجعت إلى الحصن وقلت : يا حسان ! انزل فاستابه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . قال : مالى بسلبه حاجة يا بنت عبدالمطلب .

وإذ تطلبت صعاب الحياة ومشاكلها على كثرتها من الرسل عليهم الصلاة والسلام حدة الذهن وإعمال العقل والاجتهاد في تخير الرأي الصائب كان من الحكمة الإلهية أن وهب الله لرسوله سلامة الجسم ، كما منحهم سلامة العقل حتى يستطيعوا عن طريق القوة البدنية المثابرة في التغلب على الصعاب وإيجاد حلول لمشاكل الحياة .

وقد كان الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله جميعاً ذوي أجسام صحيحة وأبدان معافاة سليمة . وربما كان لحرقهم التي زاولوها في حياتهم قبل البعثة والتكليف بتبليغ رسالة الله دخل في صحة أجسامهم ومعافاة أبدانهم . وربما كان احترافهم بها من توجيه الله لهم . فقد رعى معظمهم الغنم^(١) أو زاول حرفة أخرى^(٢) . ولا شك أن في رعى الغنم أو مزاوله الحرفة دربة على

[١] روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم . فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم . كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » . وروى النسائي من حديث نصر بن حزن قال : « افتخر أهل الإبل وأهل الغنم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعث موسى وهو راعي غنم ، وبعث داود وهو راعي غنم ، وبعثت أنا وأنا راعي غنم أهلي » .

[٢] روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده » . قال الحافظ بن حجر : « وجاء عن ابن عباس : أن داود كان زراداً ، وكان آدم حراناً ، وكان نوح نجاراً ، وكان لإدريس خياطاً ، وكان موسى راعياً » . قال الخطابي : إن الله لم يضم النبوة في أبناء الدنيا والمترفين منهم ، وإنما جعلها في أهل التواضع كرعاء الشاة وأصحاب الحرف .

الصبر على العمل مهما عظم أوشق على النفس^(١) ، كما يحفز إلى الاستخفاف بالمسكاره والاقدام عند الفرع^(٢) .

[١] روى البخارى عن البراء بن عازب قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه » . وروى البخارى أيضاً عن جابر بن عبد الله قال : كنا يوم الخندق نحفر فمرضت لنا كدية شديدة (قطعة حجر صلبة لا يعمل فيها المعول) فأخبروه صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر وكنا لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذوافاً فأخذ صلى الله عليه وسلم المعول ف ضرب فى الكدية فعاد كئيباً أهيل » .

[٢] روى البخارى عن أنس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس ، وانفذ فرع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم صلى الله عليه وسلم وقد تحمق الخبر ، وهو على فرس عرى ، ما عليه سرج ، وفى عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا » .

الفصل الثاني

رأى بعض العلماء في جواز اجتهاد الأنبياء :

رأينا أن تقدم بين يدي تفصيل الكلام على اجتهاد نبينا صلى الله عليه وسلم جملة من أقوال كبار العلماء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم في اجتهاد الأنبياء عليهم صلوات الله . ومنها يتبين للقارىء أن الذين ينكرون اجتهاد الأنبياء إنما يغمضون أعينهم ويستغشون ثيابهم حتى لا تتخطف أبصارهم هذه الأداة القاطعة التي لا يصمد أمام صوتها لجابة معاند ولا مكابرة جاحد .

ولدى من منع الاجتهاد عن الأنبياء من أمثال أبي على الجبائى وابنه أبى هاشم دليل امتاز بكثرة دورانه على ألسنة الناس . وهو فى واقع الأمر ليس بدليل . وهذا الدليل هو التمسك بقوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ^(١)... » . فقد اقتطع الجبائى هذه الآية عن سابقها ولاحقها ، وقذف بها فى آذان الناس . فصارت تلوكها ألسنتهم بدون فكر ولا روية . والعجيب أنا كثيراً ما نسمع من يستدل بها حتى الآن من بين طلاب العلم والعلماء .

[١] آية ٣ من سورة النجم .

وإذا قطعنا النظر عن أن سياق الآيات يدل كما فهم كبار المحققين على أن الكلام في القرآن وان المراد أن هذا القرآن الذي يتلوه عليكم محمد ليس من عنده ، بل هو وحى يوحى إليه من الله ، نقول : إذا قطعنا النظر عن كل ذلك فإننا نقول لكم : ما ذا تريدون بـ « ما ينطق عن الهوى » ؟ أتريدون أنه صلى الله عليه وسلم لا يلفظ بقول مطلقاً في أى جزئية إلا بوحى . حتى قوله : كيف أنت يا فلان ، أو أين ذاهب ، أو مزاحه مع زوجته ، أو خادمه ، أو قوله : أنا عطشان أو جوعان ، أو اسقني مثلاً . إن قاتم إن كل هذا بوحى خاص ، قلنا لكم قد سقط الخطاب معكم .

وإن أردتم أنه لا ينطق عن الهوى بمعنى أنه لا يقول عن شهوة وغرض بل ما يقوله لمصلحة ، قلنا نحن معكم في هذا . ولكن لا يفيدكم في منع الاجتهاد . لأن الاجتهاد لا يصدر منه إلا تحت اعتقاد أنه مصلحة . وإن ظهر خلاف ذلك فهو معذور .

وإن أردتم أنه لا ينطق عن هوى بمعنى أنه أوحى إليه بأنه يجتهد ، فاجتهاده بإذن ، قلنا لكم ونحن نقول بذلك . ولا مانع حينئذ من أن يجتهد ولا يصيب في جزئية . لأنه لا تلازم بين الإذن في الاجتهاد وبين الإصابة في كل جزئية ، كما أنه لا تلازم بين الأمر بالصلاة وبين وقوعها كما أمر الله ، بل قد يعتريه فيها السهو فيصلى الرباعية مثلاً خمساً .

وإن قلت إن المراد ما ينطق عن الهوى في الأمور الشرعية فقط ، أى ما يكون فعله لها يعتبر تشريماً مرغوباً فيه ، قلنا لكم : وهل أخرجتم من أعماله الشرعية سوى خصوصياته كمنكاح ما فوق الأربع ، وسوى جبلياته كالجوع والعطش ، والصحة والمرض . أما ما عدا ذلك من أقواله وأفعاله وسكوته فكل ذلك أدخلتموه في أعماله التشريعية ، فقلتُم : يُسنّ لنا أن نرعى في غطاء الرأس عذبة ، كما كان صلى الله عليه وسلم يفعل . وقلتُم عند ما نقل عنه في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قبّل ابنه إبراهيم وشمه - : وفي الحديث مشروعية تقبيل الوالد لولده وشمه . وقلتُم - لما فلى صلى الله عليه وسلم ثوبه - : يؤخذ من الحديث مشروعية تغطية المرء ثوبه . فهل كل ما كان من هذا النوع - وهو لا يمد ولا يحصى ولا يخلو عنه صلى الله عليه وسلم في جل حياته الشريفة - بوحى ؟ . أظن أنه لا يقول بذلك عاقل .

رأى بن حزم :

وابن حزم في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » يقول :

« قد يقع من الأنبياء قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى فيوافق

خلاف مراد الله تعالى ، وأنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذا أصلاً . بل

ينبهم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ، ويظهره لعباده . وربما عاتبهم على ذلك

بالكلام ، كما فعل مع نبينا صلى الله عليه وسلم في أمر « زينب »^(١) ،
وقصة ابن أم مكتوم ، وربما عاتبهم ببعض المكروه في الدنيا ، كالذى أصاب
آدم ويونس عليهما السلام .

والأنبياء عليهم السلام بخلافنا في هذا . فإننا غير مؤاخذين بما قصدنا به
وجه الله فلم يصادف مراده تعالى ، بل نحن مأجورون على هذا أجراً واحداً ...
ثم ذكر عن آدم قوله تعالى : « فَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى^(٢) » وقوله :
« فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » وشرح ذلك بأن التوبة لا تكون إلا من ذنب . ثم
قال : وهذا وقع منه عن قصد إلى خلاف ما أمر به متأولاً في ذلك ولا يدرى
أنه عاص ؛ بل كان ظاناً أن الأمر للندب مثلاً أو النهي للكراهة . وهذا
شيء يقع فيه العلماء والفقهاء كثيراً . وهذا هو الذى يقع من الأنبياء ،
ويؤاخذون به إذا وقع منهم .

ثم قال : وقال لنوح : « فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ
أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٣) » لأن نوحاً ظن أن ابنه من أهله ، وأن المراد
أهل القرابة . فلما علم أن هذا ليس مراداً ندم ، وليس هنا تعمد لمعصية .

[١] قصة زينب وابن أم مكتوم سيأتي تفصيلها بعد . [٢] آية ١٢١ سورة طه .

[٣] آية ٤١ سورة هود .

وقال (الله) في يونس : [وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ] ^(١) .

وقال (الله) لنبينا صلى الله عليه وسلم : [فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ] ^(٢) . ثم قال (صاحب الفصل) : إنه غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله فعوتب بذلك ، وإن كان ظاناً أن هذا ليس عليه فيه شيء . وهذا هو ما أراد الله من نبينا صلى الله عليه وسلم حين نهاه عن مغاضبة قومه ، وأمره بالصبر على أذاهم . وأما إخبار الله بأنه استحق الذم والملامة لولا النعمة التي تداركه بها للبت معاقباً في بطن الحوت ، فـ هذا هو ما تقرر آنفاً من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه مما يظنون خيراً إذ لم يوافق مراد الله . وعلى هذا الوجه أقر يونس عليه السلام على نفسه بأنه كان من الظالمين . « ^(٣) .

[١] آية ٨٧ سورة الأنبياء .

[٢] آية ٤٨ ، ٤٩ سورة نون

[٣] ملخص من كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ج ٤ ص ٢

طبعة صبيح سنة ١٣٤٧ هـ .

رأى ابن تيمية:

وابن تيمية يرى أن « الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة . بخلاف غير الأنبياء فإنهم غير معصومين، ولو كانوا أولياء الله » .

وأما العصمة في غير ما يتعلق بالتبليغ فللناس فيه نزاع: والقول الذي عليه جمهور الناس - وهو الموافق للمنقول عن السلف - إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والذنوب مطلقاً .

واحتج من قال إنه لا يقع من الأنبياء ذنوب بأن التأسى بهم مشروع . وذلك لا يكون إلا إذا عصمت أفعالهم عن الذنب . وأجيب بأن التأسى مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ، كما أن أمر الله ونهيه إنما تجب طاعته فيما لم ينسخ منه ، أما ما نسخ منه فلا يكون مأموراً به فضلاً عن وجوب طاعته^(١) .

[١] وتقول أيضاً لا نزاع بيننا وبينكم في أن التأسى به صلى الله عليه وسلم في الصلاة مفروض بل واجب ، ومع ذلك يقع منه السهو والنسيان ويراجع في سهوه ويصحح =

احتجوا أيضاً بأن الذنوب تنافى الكمال وأنها توجب التنفير ، ونحو هذا من الحجج العقلية . وردَّ بأن هذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، وكان يونس بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع . قال تعالى : [فاصبرْ لحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ، لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لُنُبِدَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ] . وهذه الحال الأخير بخلاف حال التقام الحوت ، فإنه قال فيه : [فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ] فأخبر سبحانه أنه في تلك الحال ملِيمٌ . والملِيم هو الذي فعل ما يلام عليه ، فكان حاله بعد قوله : [لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان . والاعتبار بكمال النهاية ، لا بما جرى في البداية . والأعمال بخواتيمها . والله خلق الإنسان لا يعلم شيئاً ، ثم علمه فنقله من حال النقص الى حال الكمال . فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما

= ما سها عنه ، فلم لا يكون الخطأ في الاجتهاد كوقوع السهو في العباد والكل ينه صلى الله عليه وسلم عليه ؟ . روى البخارى عن ابن مسعود - عند ما سها صلى الله عليه وسلم في الصلاة وذكره - أنه قال : [لو حدث شيء في الصلاة لنبأتكم به ، ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني] .

وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال الكمال . ويونس وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في حال النهاية في أكمل الأحوال .

وقد كان هذا حال الأنبياء دائماً يبادرون إلى التوبة والاستغفار عند الهفوة . والقرآن شاهد عدل .

فها هو ذا لم يذكر شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار . كقول آدم وزوجه : [رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] . وقول نوح : [رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ] . وقول الخليل : [وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ] . وقول موسى : [رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي] . وقوله : [فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ] . وقوله تعالى في داود : [فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ] . . . إلى غير ذلك .

والذين لا يقولون بصدور مخالف عن الأنبياء تأولوا كل ذلك بمثل

تأويلات الجهمية^(١) والقدرية^(٢) لتصوص الصفات والمعاد . وهي من جنس
تأويلات الباطنية^(٣) والقرامطة^(٤) التي يُعلم بالضرورة أنها باطلة وأنها من
باب تحريف الكلم عن مواضعه .

وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم ، ويريد الإيمان
بهم فيقع في الكفر بهم .

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع ، والعقل ، والإجماع ، وهي العصمة في
التبليغ لم ينتفعوا بها إذا كانوا لا يقرون بموجب ما بلغته الأنبياء . ومن هنا
غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فاسمهم اعتبروا كمال
الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا . ولو اعتبروا حال الأنبياء

[١] أصحاب جهنم بن صفوان ، قالوا : لا قدرة للعبد ، والله لا يعلم الشيء قبل وقوعه
وعلمه حادث لافي محل ، ولا يتصف بما يتصف به غيره كالعلم والقدرة . ويسمون المعتلة
أيضا . فالمعتلة والجهمية فرقة واحدة .

[٢] القدرية هم المعتلة ، ولقبوا بذلك لأنهم أسندوا أفعال العباد إلى قدرهم . ويلقبون
بأصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب « الصلاح » ونفي الصفات القديمة .

[٣] فرقة من فرق الشيعة ، ويسمون أيضا الإسماعيلية . وسماوا باطنية لقولهم بباطن
الكتاب دون ظاهره . ولقبوا بالإسماعيلية لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر ووقفهم
بالإمامة عليه .

[٤] لقبوا بذلك لأن أولهم الداعي إلى المذهب ، وهو حمدان قرمط ، ظهر بالكوفة
سنة ٢٧٠ هـ . ومن زعمهم أن لا غسل من الجنابة ، وأن الخمر حلال ، وأن الحج إلى
بيت المقدس

والصالحين بعد الكمال ورضى الرحمن ودخول الجنان ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، لرجعوا عن خطئهم .

وما يظنه بعض الناس من أن من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ، ليس بصواب . بل الاعتبار بالعاقبة ، فأيهما كان أتقى في عاقبته كان أفضل . إذ من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بعد كفرهم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم . وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما من أشد الناس على الإسلام ومع ذلك لما أسلما تقدما من سبقهما في الاسلام ، لما ظهر منهما من كمال الجهاد للكفار والانتصار لله ورسوله . وذلك يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية . وقد ورد أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد يأس . فمن ظن أن صاحب التوبة النصوح يكون ناقصاً فقد غلط غلطاً عظيماً . فان الدم والعقاب الذى يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منها شيء أصلاً . لكن إن أسرع بالتوبة لم يلحقه شيء ، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنب والتوبة ما يناسب حاله من الدم والعقاب .

والأنبياء صلوات الله عليهم كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل يسارعون إليها ولا يصبرون على الذنب ، بل هم معصومون من ذلك . ومن آخر ذلك زمناً يسيراً كفر الله عنه ذلك ، بما يبتليه به . كما فعل بذي النون على المشهور من أن إلقاءه كان بعد النبوة . أما إذا كان قبلها فلا يحتاج إلى ذلك . ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة . لكن المنازعون يتأولونها كتأويلات الباطنية ، كما تقدم . وتأويلاتهم ظاهرة الفساد لمن تدبرها . فهي من باب تحريف الكلم عن مواضعه .

من ذلك تأويلهم قوله تعالى : [لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ]^(١) . قالوا : المراد ذنب أمتك . وذلك باطل من وجوه :

١ - قوله تعالى : [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ]^(٢) . وقال : [فإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ]^(٣) .

٢ - أنه قد ميز بين ذنبه صلى الله عليه وسلم وذنوب أمته ، بقوله : [وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ]^(٤) . فكيف يعد ذنب المؤمنين ذنباً له ؟ .

٣ - أن هذه الآية لما نزلت همَّ بعض الصحابة بالتشديد على أنفسهم بعدم قربان النساء والصيام دائماً تقريباً لله بذلك . فلما علم بذلك

[١] آية ١ سورة الفتح [٢] آية ٢٨ سورة المائدة [٣] آية ٥٤ سورة النور
[٤] آية ١٩ سورة محمد

صلى الله عليه وسلم غضب ، وقال : [إني أقوم ، وأنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني ! فقالوا : إنا لسنا مثلك يارسول الله ، فان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : إن اتقاكم وأعلمكم بالله أنا . أفلا أكون عبداً شكوراً؟]^(١) .

فدل هذا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يعلمون أن قوله تعالى : [لِيَغْفِرَ لَكَ . . .] . خاص به دون أمته . وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : [اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي] . وأخرج الصحيحان أن آية الفتح نزلت مَرَجِعَهُ صلى الله عليه وسلم من الحديبية . فقال صلى الله عليه وسلم : [لقد نزلت على الليلة آية أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم . فقالوا : هنيئاً مريئاً يا نبي الله ، بين الله ما يفعل بك . فما يفعل بنا ؟ . فنزلت : [اِيَدْخُلِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . حتى بلغ فوزاً عظيماً] . وروى البخاري عن المغيرة : [كان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تورم قدماه أو ساقاه . فقيل : لم هذا وقد غفر لك ؟ . فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً؟] .

فكل هذه الرويات الصحيحة الصريحة تدل على بطلان قول من رأى
أن الذنب المغفور ذنب أمته . ولكنه التعصب للرأى واللجاجة فى غير
الحق ،^(١)

رأى القاضى عياض :

قال القاضى عياض فى « الشفاء »^(٢) :

١ - « وأما أحواله فى أمور الدنيا فقد يعتقد صلى الله عليه وسلم الشىء منها على
وجه ويظهر خلافه . (أى يظهر أنه على خلافه فى الواقع ونفس الأمر^(٣)) . ثم
ذكر حديث تأبير النخل المروى عن مسلم والذى سيأتى تفصيل الكلام فيه .
وفى آخره قال صلى الله عليه وسلم : إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من
دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأى فإنما أنا بشر . قال شارح
الشفاء ، أى قد أرى الرأى فى أمور الدنيا والأمر بخلافه ، فلا يجب اتباعه .
ثم ذكر رواية مسلم الأخرى التى فيها : [إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى
بالظن] .

[١] فتاوى ابن تيمية ، > ٢ ص ٢٨٣ طبع كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

[٢] > ٤ من ص ٢٦٥ طبع المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٢٧ هـ .

[٣] تعليق شهاب الدين الحفاجى .

ويحكى عن ابن رشد أنه في كتاب « التحصيل والبيان » يذكر أن هذا الحديث - يشير لحديث مسلم في تأييد النخل - روى بالفاظ مختلفة ، متقاربة معنى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : [ما أنا بزارع ولا صاحب نخل] . ويعلق الوليد^(١) بقوله : إنه صلى الله عليه وسلم بين أنه لا تأثير في الصلاح والفساد لغير الله تعالى ، إلا أن الله تعالى قد يجرى العادة بأسباب تعلم بالتجربة ، كالتأبير . وهو صلى الله عليه وسلم لم يسبق له تجربة فيه . وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : [إنما أنا بشر ، فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطىء وأصيب] .

والخفاجى شارح الشفاء - بعد أن ذكر حادثة نزول المسلمين بأدنى مياه بربر التي سيأتى شرحها ، ومعارضة الحباب بن المنذر وقوله : أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : [بل هو الحرب والرأى ... الخ] . فأشار الحباب بمنزل آخر . فقال صلى الله عليه وسلم : [أشرت بالرأى الصائب !] وفعل ما قاله الحباب - علق بقوله : إن العرب أدري بالحروب ، لأنهم جربوها وقاسوا شدائدنا .

ويستطرد - القاضى عياض - فى ذكر أحواله صلى الله عليه وسلم فى

أمور الدنيا ، فيروى حادثة عزمه صلى الله عليه وسلم على مصالحة أعدائه يوم الخندق على تمر المدينة^(١) . فلما استشار صلى الله عليه وسلم الأنصار وعارضوا رأيه رجع عنه . ثم يملق على هذه الحادثة بقوله :

فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها ، كل هذه يجوز عليه صلى الله عليه وسلم فيها ما ذكرناه من اعتقاد شيء على وجه فيظهر على خلافه . إذ ليس في هذا نقيصة ، إنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها وشغل نفسه بها ، وهو صلى الله عليه وسلم مشحون القلب بمعرفة الربوبية .

٢ - وينتقل بعد ذلك إلى الحديث بما يمتقده صلى الله عليه وسلم في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ، ومعرفة الحق من المبطل ، والمصلح من المفسد ، ويحكم بأن : كل ذلك على السبيل في أمور الدنيا التي قد يظهر له منها ما الأمر على خلافه أحياناً^(٢) .

[١] سيأتي الحديث عنه .

[٢] ويعلمه الحفاجي ، صاحب الشرح عليه ، بأن الله اختار له ذلك لئلا يضل به بعض أمته لتوهمهم أنه يعلم الغيب فيقعون فيما وقع فيه النصارى .
ويقول صاحب « المنار » في هذا المعنى : وكان من حكمة الله في تربية رسوله صلى الله عليه وسلم وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده الشخصي البشري فيها لتكون أوقع في نفسه ونفس أتباعه . وأيضاً لتكون نذيراً دائماً دائماً لمن تحدته نفسه بما وقعت =

ويؤيد حكمه هذا بذكر حديث الشيخين وأبي داود - واللفظ لأبي داود -
قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل
بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع . فمن
قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة
من نار » (١) .

رأى ابن خلدون :

وأما ابن خلدون فيعرض - في مقدمته (٢) - عند الحديث عن طب
البادية لما كان يراه الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر العلل وعلاجها ، ويذكر
أن رأيه في ذلك لا يتصل بالوحي ؛ بل يعد من الأحوال التي هي عادة وجبلة
له . وعبارته : « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على
تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه . وربما

== فيه النصارى مع عيسى عليه السلام ، فتكون حداً فاصلاً واضحاً بين صفات البشر وصفات
خالق البشر ، وصفات الحادث الذى يتلقى عن غيره ما يكمله ، وبين صفات القديم الذى
يفيض من فيض علمه على من يختار من عباده . سبحانه هو وحده ، الذى ليس كمثلته شيء ! .
[١] قال شارح الشفاء في تعليقه على هذا : لما أمر الله تعالى أمته بالافتداء به واتباعه في
قضاياه وأحكامه كان حكمه على هذا النحو ، وإلا لم يكن للأمة سبيل للاقتداء به في شيء
من ذلك ، وليقتدى به حكام أمته ، ويستوثقوا بما يؤثر عنه ، وينضبط قانون شريعته .
[٢] طبع المطبعة الأميرية ؛ سنة ١٣٢١ هـ ص ٤٦٧ .

يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج .
وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون : كالحارث
ابن كلدة وغيره .

والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي فى شىء ،
وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع فى ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم
من نوع ذكر أحواله التى هى عادة وجبلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على
ذلك النحو من العمل . فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم
يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات . وقد وقع له فى شأن تأبير النخل
ما وقع ، فقال : أتم أعلم بأمور دنياكم .

فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث الصحيحة
المنقولة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه . اللهم إلا إذا استعمل على
جهة التبرك وصدق العقد الإيماني فيكون له أثر عظيم فى النفع . وليس ذلك
فى الطب المزاجى ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية ، كما وقع فى مداواة
المبظون بالعسل . والله الهادى إلى الصواب ، لا رب سواه .

رأى السكّال بن الرهمام :

والسكّال بن الهمام فى كتابه « التحرير » يذكر أن أكثر الأقوال الفقهية ترى أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالاجتهاد مطلقاً فى الأحكام الشرعية ، والحروب ، والأمور الدينية من غير تقييد بشىء منها . ويشير إلى أن ذلك مذهب عامة الأصوليين : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وعامة أهل الحديث^(١) كذلك ثم يسوق قوله تعالى : « عَفَاَ اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ » ،

[١] وجاء فى التحرير وشرحه أيضا :

« وقال الأشاعرة وأكثر المعتزلة لا يصح أن يكون صلى الله عليه وسلم مأمورا بالاجتهاد فى الأحكام الشرعية .

وقال بعد ذلك : وقيل كان له الاجتهاد فى الأمور الدينية والحروب دون الأحكام : وقيل كان له الاجتهاد فى الحروب فقط ، وهو محكى عن القاضى والجبائى .

وقال القرافى فى شرح تنقيح الفصول : قال الشافعى وأبو يوسف وقع منه صلى الله عليه وسلم الاجتهاد . وقال أبو على وأبو هاشم : لم يكن متعبدا به لقوله تعالى : إن هو إلا وحي يوحى . وقال بعضهم : كان له صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فى الحروب والآراء دون الأحكام . وتوقف أكثر المحققين . وقال ابن الحاجب وشارحه العضاة : المختار وقوعه ، لنا : عفا الله عنك لم أذنت لهم . عاتبه على حكمه ، ومثل ذلك لا يكون فيما علم بالوحي .

وقال صلى الله عليه وسلم : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى . وسوق الهدى حكم شرعى . أى لو علمت أولا ما علمت آخرا لما فعلت . ومثل ذلك لا يستقيم إلا فيما

عمل بالرأى . قال السعدى فى الحاشية : قوله عاتبه على حكمه الذى هو الأذن بالتخلف عن نبوك لمن ظهر نفاقهم . وهذا يقوم حجة على من منع اجتهاده مطلقا . أما من جوزوه فى

الحروب وأمور الدنيا دون الأحكام الشرعية التى تتعلق بذلك فالحجة عليه قوله صلى الله عليه وسلم : لو استقبلت من أمرى . . . الحديث . ولذا صرح بأن سوق الهدى حكم

شرعى . وقال المطار فى حاشيته على شرح الجلال المحلى : والغالب على الظن أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يجتهد فى قواعد أصول الفقه كما سيأتى ، وكان يجتهد فى الفروع .

ويعلق عليها بقوله : ولا عتب فيما هو وحي من عند الله ، ويرد ما قاله الكرماني من أنه عتاب على ترك الأولى ، بأن ظاهر الآية بخالفه^(١) .

ثم يذكر أنه قد جاء في الحديث الصحيح : « أنه بعد أن مال صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبي بكر وأخذ الفداء ، وخالف بذلك رأى عمر القائل بالقتل ، ونزلت الآية الكريمة السابقة : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُشْرَىٰ ... » بكى صلى الله عليه وسلم وبكى معه أبو بكر ، قال عمر : فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب بكائه فقال صلى الله عليه وسلم : أبكى اللذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة ، وقال : لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر . ويستنتج منه : أنه يدل على أن أخذ الفداء كان باجتهاد ، وكان خطأً عظيماً ، ويمثل ذلك بقوله : لأن العذاب لا يكون لترك الأولى ، ثم يستطرد فيقول : فإن قلت : كيف هذا وقد تقرر أن الخطيء في الاجتهاد له أجر واحد ؟ ، قلت : الأجر على تقدير أن لا يكون خلاف ما أدى إليه الاجتهاد ظاهراً .

[١] قال شارح مسلم الثبوت : وقد يقال : هذا لا يدل على كون أخذ الفداء بالرأى فإنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم مخيراً بين الفداء والقتل ، ويكون القتل أولى ، والعتاب لترك الأولى . ولا يخفى أن هذا بعيد . فإن مثل هذا الوعيد الشديد لا يكون على خلاف الأولى .

فأما إذا كان ظاهراً ، فلا . بل يستحق المجتهد العذاب . ألا ترى أن المبتدعة قد كانوا مجتهدين . فحيث كان خلاف رأيهم ظاهراً استحقوا العذاب . قال صلى الله عليه وسلم : « كلهم في النار إلا واحدة » . فإن قلت إذا كانت الحكمة في عدم تعذيب المخطئ ، أنه بذل وسعه في طلب الصواب فلا يفترق الحال في كون المجتهد فيه عملياً أو اعتقادياً ، فلم يحكم بعدم نجات المبتدعة وهم مجتهدون في العقيدة ؟ قلت : في الاعتقاد لم يكن المحل صالحاً للاجتهد ، لوجود النص المفيد للقطع ، والشارع قد منع الخوض في ذلك .

ثم قال : وقد ثبت اجتهاده صلى الله عليه وسلم في الشرعيات ، فقال : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى ، فعمل أنه لم يسق بوحى ، وإلا لم يقل ذلك . وأيضاً لو كان سائقاً بالوحى لكان علمه بالمصلحة كعدم علمه بها^(١) . وسوق الهدى مندوب - فقد اجتهد في حكم شرعى . ثم قال : إلا أنه صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد وأخطأ لا يقر على الخطأ . ثم قال : ولا يبعد أن يقال : إن في جواز الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فكر البشر وإن كان في أعلى الدرجات يحتمل الخطأ ، بخلاف الوحي . ثم قال : وقول من أنكروا وقوع الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وتأول مثل آية : [عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ] . وآية : [مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى ... الخ] على خلاف ظاهرهما على وجه يحل بكال

[١] أى فلا يصح منه (س) الندم على سوق الهدى

بلاغة القرآن من غير ضرورة ملجئة إليه ، قول لا ينبغي أن يقدم عليه أهل العلم مبالغة منهم في علو شأن الأنبياء . لأن خطأهم في الاجتهاد لا يخل بعلو شأنهم . أى بخلاف الإخلال ببلاغة القرآن فإنه شديد الخطر ، لا يقدم على سببه مسلم . ثم قال : وكان الخطأ في مسألة الأسرى أنه صلى الله عليه وسلم ومن معه نظروا إلى أن استبقاءهم سبب لإسلامهم ، وفداءهم يتقوى به على الجهاد . وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام ، وأرهب لمن وراءهم ، وأقل لشوكتهم . ولا يصح أن يكون هذا التشديد من الله لمخالفته الأولى ، كما قال الكرمانى . لأن مثل هذا الوعيد لا يلائم ترك الأولى . ثم قال : واتفقوا على أنه صلى الله عليه وسلم لا يقر على الخطأ .

ثم ينتقل - الكمال ابن الهمام - لمعالجة نقطة أخرى ، وهى الاجتهاد فى الأحكام الفقهية ، فيقول : وأما الأحكام الفقهية فمنكر الضرورى منها - وهو الذى يعرفه كل أحد حتى النساء والصبيان كفرضية الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وحرمة الزنا والخمر ، وقتل النفس المحرمة ، والسرقه - كافر « لأن إنكار ما هو من ضروريات ملة الإسلام يستلزم إنكارها باجتهاد باطل ، لانتفاء شرط الاجتهاد ، وهو كون المجتهد فيه نظريا بأن لا يكون (٤ - اجتهاد نبي الإسلام)

خلافه بدهياً^(١) . ومنكر غير الضروري من القواعد الأصلية^(٢) ككون الإجماع حجة ، وخبر الواحد حجة ، والقياس حجة ، آثم . ومنكر غير الأصلية وهي الأحكام الفرعية الاجتهادية فالقطع على أنه لا إثم فيها على المخطئ بشرط حل الاجتهاد بأن لا يكون في مقابله دليل قاطع من نص أو إجماع ، لدلالة إجماع الصحابة على عدم تأثيم المخطئ فيها ، إذ شاع اختلافهم في المسائل الاجتهادية ولا بد من خطأ واحد من المتناقضين ولم ينقل تأثيم واحد لغيره ، ولو وجد لشاع لأنه أمر خطير . وعدد وقائع الخلاف من زمن الصحابة إلى انقراض المجتهدين أكثر من أن يحصى .

[١] روى البخارى (ج ١٢ ص ١٦٢ فى الديات) عن عبد الله بن مسعود ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة » . قال الحافظ بن حجر : قال ابن دقيق العيد : قد يؤخذ من قوله « المفارق لدينه التارك للجماعة » أن المراد المخالف لأهل الاجماع فيكون متمسكاً لمن يقول : مخالف الإجماع كافر . وقد نسب ذلك لبعض الناس ، وليس ذلك بالهين : فإن المسائل الإجماعية تارة يصحبها التواتر بالنقل عن صاحب الفرع كوجوب الصلاة مثلاً ، وتارة لا يصحبها التواتر . فالأول يكفر جاحده لمخالفته التواتر ، لا لمخالفته الإجماع . والثانى لا يكفر به . قال شيخنا فى شرح الترمذى : الصحيح فى تكفير منكر الإجماع تقييده بإنكار ما يعلم وجوبه من الدين بالضرورة ، كالصلوات الخمس . ومنهم من عبر بإنكار ما علم وجوبه بالتواتر .

[٢] هى التى ينبئ عليها الفروع .

ويستطرد فيقول : وقال الجاحظ : لا إثم على مجتهد أى مجتهد كان ، ولو كان الخطأ منه واقعاً في نقي الإسلام ، وكان الاجتهاد من غير المسلم . وتجرى على النافي المذكور أحكام الكفار ، لأنه لا سبيل إلى إجراء أحكام المسلمين لعدم الإسلام ولا واسطة . وما قاله الجاحظ من نقي الإثم هو مراد العنبري^(١) بقوله : المجتهد في العقليات مصيب . وجميع المسلمين على خلاف رأيهما .

ثم ينقل عنهما فيحكي أنهما يقولان : تكليف مجتهدى الكفار بنقيض مجتهدهم تكليف بما لا يطاق ، فلم يكاف إلا بما في وسعه من الاجتهاد وقد فعل . ويذكر أنه أجيب بمنع أنه فعل ما كلف به . إذ لا شك أن على هذا المطلوب الذى كلف بالوصول إليه وهو الإسلام أدلة قطعية ظاهرة بحيث لو وقع نظره في موادها الموجودة في النفس والآفاق المنادية بلسان الحال إن الطريق هكذا لا يتغير لظهوره كالشمس - لوصل قطعاً . فإذا نظر ولم يصل للحق مع ذلك علم أنه فقد شرطاً من شروط النظر ، لتقصيره وعدم التفاته إلى ما يرشده لانهما كه في مطمورة التقليد للآباء .

[١] هو عبد الله بن الحسين العنبري من المعتزلة (كما قال الأمدى في الأحكام) .

الفصل الثالث

بعض أمته من اجتهاد الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم :

جاء في القرآن والحديث الصحيح ما يفيد صريحه صدور أفعال من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وصف بعضها بأنه معصية ، والبعض الآخر بأنه ذنب ، كما وصف نوع ثالث منها بأنه خطيئة . وذلك مما يدل على أنهم كانوا يجتهدون وتصدر عنهم أفعال بناء عن اجتهادهم دون أن يتلقوا فيها وحياً ، وإلا لو كانت قد صدرت عنهم بعد وحى إليهم بها لما صحح أن يوجه الله إليهم لوما ، ولا أن يلجأ أحدهم للاستغفار والضراعة والتوبة .

روى البخارى عن أنس ، قال : قال صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده فاشفع لنا ! فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ويقول : ائتوا نوحاً أول الرسل وفى رواية فيقول : قد أخرجت بخطيئتي من الجنة ، وفى رواية : هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة

أبيكم آدم؟ اذهبوا إلى نوح! ، وفي رواية : إنه نهاني عن الشجرة فعصيت ،
نفسى نفسى ! ، اذهبوا إلى غيرى ! ، فيأتون نوحا فيقول : لست هناكم ،
ويذكر خطيئته ، اثتوا إبراهيم الذى اتخذ خليلا ! (وفي رواية ويذكر سؤال
ربه ما ليس له به علم - قال ابن حجر ، تعليقا على ذلك ، فخشى أن تكون
الشفاعة لأهل الموقف من ذلك -) ... إلى أن قال فى الحديث : فيأتون
موسى ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته (وفي رواية يقول : إني قتلت
نفساً بغير نفس ، وأن يغفر لى اليوم حسبي) ... الخ » .

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه
وسلم : « قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على مائة امرأة
كلهن يأتى بفارسٍ يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله ! ،
فلم يقل : إن شاء الله ! . فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل :
والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » .
والحافظ بن حجر يعلق على هذا الحديث بقوله : قال بعض السلف : نبه
صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث على آفة التمنى والإعراض عن التفويض .
ولذلك نسي سليمان الاستثناء ليمضى فيه القدر ... ثم قال : وكان سليمان
عليه السلام نسي بعد تذكيره لشيء عرض له فشغله .

ورواية البخارى سواء عن طريق أنس أو أبى هريرة رضى الله عنهما تنبى عن أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد عليه السلام ، كل منهم إما أحس في نفسه بتقصير نتيجة خطأ في الرأى أو نسيان منه ، أو أن ما أخبر به لم يتحقق . وذلك يدل بالتالى على أن الأنبياء بشر فحسب ، إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحي الإلهى جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادى ، جاز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ، كما يجوز عليهم النسيان . يتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادى ، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى جل شأنه وتزداد شوقاً إلى ذلك أكثر من الإنسان العادى لما يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته .

ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله والله لوجب أن يتحقق مضمون قوله ويتمزه عن الخطأ فعلمه حين القول والفعل أو بعد القول والفعل . وإلا كان فى رسالة الله مالا يصح أن يكون لله الذى هو الحق منذ الأزل إلى الأبد (١) .

[١] وقد تقدم بعض ما وقع من بعض الانبياء غير ما ذكر هنا . انظر كلام ابن حزم وابن تيمية فى الفصل الثانى من الباب الأول صفحة (٣١ - ٣٤) .